

البيداغوجيا الفارقية ومعالجة صعوبات الكتابة.

أ.حجاج أم الخير

المركز الجامعي عين تموشنت

انتشر مصطلح البيداغوجيا الفارقية في سياق الوعي المعرفي المتزايد بالإشكالات التي ظلت تطرحها العملية التعليمية. وقد جاءت هذه البيداغوجيا لتسد الخلل الذي أفرزته النظم التقليدية في التعليم والتي ظلت قائمة على وحدة المنهج والبرامج وأغفت من ثم الاحتياجات التي أخذ يطلبها التعلم، مما أدى إلى ظهور مشكلات كثيرة مثل التسرب المدرسي والتخلف الدراسي وانتشار العوائق والصعوبات المتخلفة بين تلاميذ المدارس، زيادة على عجز هذه النظم التعليمية على مسايرة التطورات التي مست الحياة والمجتمع، مما جعلها عاجزة عن إيجاد الحلول واقتراح المنهجيات الصحيحة التي تراعي هذا التحول وتجد المعالجة المناسبة لتحقيق حياة تعليمية ناجحة ومتوازنة.

ولهذه الأسباب انتشر مصطلح البيداغوجيا الفارقية مع الفرنسي لويس لوقرند (Louis Legrant) (1921-2015) في السبعينيات من القرن الماضي¹.

وقد ظهرت هذه البيداغوجيا الجديدة ضمن سياق معرفي جديد عرف تنامي الدراسات التجريبية والعلمية التي اتخذت من العملية التعليمية ميدانا خصبا لها، فاستعانت بالجهود المبذولة في حقول مختلفة كعلم النفس وعلم الأعصاب وعلم الاجتماع وغيرها وحاولت أن تستثمر محصول هذه العلوم في إيجاد الحلول العلمية المناسبة واقتراح المعالجات الناجعة لمختلف العوائق والصعوبات التي يواجهها المتعلم.

مفهوم البيداغوجيا الفارقية:

تعني البيداغوجيا الفارقية وجود متعلمين مختلفين في الاستعدادات والخبرات وفي مستوى الاستعدادات ودرجات الفهم داخل قسم واحد أو فصل واحد، وهي جاءت بهذا المفهوم لتجد الحلول للفروق الفردية الكثيرة والمتنوعة بكل أبعادها النفسية والاجتماعية والمعرفية والتعليمية. وبهذا يعرف (لويس لوقرند) هذه البيداغوجيا الفارقية بأنها صيغة تربوية تستعمل مجموعة من الوسائل التعليمية قصد إعانة التلاميذ المختلفين في القدرات والسلوك والمنتمين إلى فصل واحد من فصول الدراسة بطرائق مختلفة لتحقيق الأهداف نفسها²، أي إنها تعانين هذه الاختلافات بصعوباتها لتحقيق هدفا تعليميا مشتركا للتلاميذ. وهي بهذا المعنى تسعى إلى إرساء سيرورات فارقية لاكتساب المعارف والدرجات، تحترم هويات التلاميذ ولا تجانسهم، وتتوخى كهدف اكتسابهم جميعا للأدوات اللسانية والمفاهيمية التي تتيح فهم وبناء العالم³، فهي إذا تعتمد مسالك متنوعة للوصول إلى هدف واحد سيكون له الأثر على التلميذ في المستقبل من أجل بناء المجتمع المتفتح الذي يحترم الاختلاف والخصوصية.

تضع البيداغوجيا الفارقية الفروقات الفردية في صلب اهتماماتها التعليمية والمعرفية، وهذه الفروقات متعددة المصادر، فمنها ما يرجع إلى أنماط وطرق الاكتساب، ومنها ما يرجع إلى أعطال ذات أبعاد نفسية واجتماعية وعضوية -بيولوجية، فالمتعلمون بهذا المعنى مختلفون داخل القسم الواحد المشترك من حيث الاستعدادات والقبول والذكاء والتكيف، لهذا السب كانت الفلسفة التعليمية التي تحكم هذه البيداغوجيا تقوم على خاصية التنوع في المنهج والطرق والمقاربات، أي تنوع للآليات والمقررات لتصبح قادرة على مسايرة الفروقات الفردية بين التلاميذ ومواجهة الصعوبات التي يجدها التلميذ في اكتساب الخبرة وتطوير كفاءاتهم ومهاراتهم التعليمية، وهكذا حرصت هذه البيداغوجيا على تدريب المتعلم على التعلم الذاتي والاعتماد على نفسه في إيجاد الحلول للوضعيات التعليمية الصعبة التي يواجهها، وهو ما يعني أن البيداغوجيا الفارقية

تجد نفسها صالحة لمواجهة إشكاليات التعلم في المرحلة الابتدائية بوصفها مرحلة حساسة وفاعلية في مسيرة التعلم عند الطفل⁴، وهي المرحلة التي تفرز كثيرا من المشكلات والصعوبات لحداثة الطفل بالتعلم وبداية تكون الملكات الذهنية والمعرفية لديه، وهو بذلك يحتاج إلى المتابعة والرعاية ليجد طريقه الصحيح وتكيفه السليم مع ما يعطى له من مهارات ومعارف.

تسعى البيداغوجيا الفارقية إلى ربط محتويات التعليم ومناهجه بحاجيات المتعلمين النفسية والثقافية والاجتماعية حتى تكون ملائمة لمولاهم ورغباتهم وتستجيب لمستوى الصعوبات الموجودة لديهم، وهذه البيداغوجيا لا تستطيع تحديد هذا الإطار إلا بعد استعمال أساليب التشخيص والتقويم والقياس لمواجهة ظاهرة الفروقات الفردية ومعالجة صعوباتها، وبهذا المعنى تنجز هذه البيداغوجيا معرفة واسعة بمواطن القوة والضعف وتقوم بتشخيصها وإيجاد الحلول والأوضاع المناسبة لها. المعلم في وضعية البيداغوجيا الفارقية.

يزود المعلم بالكفاءة التي تضمن له المرونة في التصرف وتنوع الاستراتيجيات التعليمية حتى تستجيب لميولات التلاميذ وقدراتهم واستعداداتهم النفسية والذهنية المختلفة، أي أنه يكون بحكم خبرته وتحكمه في مهامه قادرا على إحداث التعديلات الضرورية في المنهج والمواقف التعليمية، مما يضمن للعملية التعليمية الفائدة والنجاعة أي أنها تلي الغرض في الاستجابة لاحتياجات التلميذ المعرفية والمهارية والوجدانية، لاسيما في تكوين شخصية المتعلم في اتخاذ قراراته المناسبة والتفاعل إيجابيا مع الآخرين.

وبهذا لم يعد المعلم في البيداغوجيا الفارقية ينظر له على أنه محور العملية التعليمية فقط، ولكنه أيضا منظم للمواقف التعليمية وفاعل في اختيار الوسائل التعليمية التي تتوافق مع احتياجات المتعلمين، ذلك أن ممارسة البيداغوجيا الفارقية تعني تكيف البرنامج التعليمية، بحيث تستجيب لمتطلبات الموقف التعليمي، الأمر الذي يفرض على المعلم فهما واسعا بالوضع العام لمتعلميه، فيشخص ويقوم ويعدل حتى يستطيع تحقيق أهدافه التعليمية بتحكم وكفاءة.

يعتمد التدريس الفارقي على إيجابية المعلم في التعامل مع جميع العناصر التي تدخل في عملية التعلم بدءا من معرفة ميولات التلميذ وفروقاتهم الفردية واستعداداتهم المختلفة إلى التخطيط العلمي المحكم لأهدافه المنشودة، وهو مطالب لتحقيق أهدافه باستعمال السبل والوسائل العلمية التي تجعله قادرا على تنويع خطته وفق معايير التقويم ونتائجه. ولعل الملاحظة هي الأداة المثلى عند المعلم لقياس درجة الاستعداد ورصد الاختلافات بين التلاميذ في علاقتهم بالأنشطة التعليمية، فباستطاعة المعلم اختيار الخطوات المناسبة انطلاقا من ملاحظاته، فعبر هذه الملاحظات التي يدونها المعلم يستطيع حصر الاستراتيجيات المناسبة التي تفي بحاجات التلاميذ التعليمية⁵، وهو يسترشد في ذلك بالمؤشرات والمعايير التي تقيم الطفل في أدائه ومهاراته المعرفية، وقد يكون من مهام المعلم عبر هذه الملاحظة ما يأتي:

- رصد احتياجات التلاميذ من التدريب

- تحديد مواطن الضعف والقوة.

- تمييز ذوي التحصيل المتفوق عن ذوي التحصيل المتدني⁶.

التعليم العلاجي وتشخيص صعوبات الكتابة:

يشترط في تشخيص صعوبات الكتابة أن تكون العملية دقيقة وملمة بكل أبعاد الصعوبات الحسية الحركية والمعرفية واللسانية والنفسية والاجتماعية، ذلك أن هذه العملية توفر إمكانية التدخل العلاجي المناسب وتسمح بإعداد البرامج التدريسية الضرورية لنمو المهارات عن الطفل، ولما كان الطفل يعيش المرحلتين: مرحلة ما قبل الكتابة ومرحلة الكتابة، فإن

التشخيص المبكر الذي يستهدف الكشف عن عوامل الصعوبات في الكتابة ومسبباتها سيحقق حتما فائدته ونجاعته، لذلك كان من الضروري البدء بتشخيص العناصر المرتبط بمجسد الطفل وعضلاته ومهاراته الحسية الحركية وقواه العقلية والذهنية وعلاقاته مع الوسط الذي يعيش فيه ويتفاعل معه وتحديد درجة صلته بالكتابة، وفي هذا الإطار يشير (ويل أمانسون) بأنه يمكن التحقق من ملاءمة نمو مهارات ما قبل الكتابة عند الطفل إذا استطاع أن ينسخ الأشكال الهندسية التسعة المحددة للاستعداد اللغوي للكتابة اليدوية، وهي الخط الرأسي، والخط الأفقي، والدائرة، والخطان المتقاطعان والخط المائل يميناً والخط المائل يساراً والمربع وعلامة الضرب أو المثلث وهذه يصل فيها الطفل إلى التمكن عند عمر للزمني خمس سنوات وثلاثة أشهر في المدى المتوسط⁷

وتظهر التجارب التربوية أن من العوامل التي كانت تزيد من تفاقم هذه الصعوبات عند الأطفال، أن المعلمين لم يكونوا في الغالب ينتبهون إلى المسببات العميقة التي تجعل التلميذ عاجزاً عن الأداء الصحيح، وكثيراً ما كانوا يردون ذلك إلى الكسل والإهمال لافتقارهم إلى القاعدة التكوينية والمتخصصة في هذا المجال، مما كان يجعل هذه الصعوبات ذات أثر خطير على المستقبل المعرفي والتعليمي للتلميذ، فالآثار النفسية التي تنتج عن هذه الصعوبة مؤثرة في تكوين شخصية الطفل، فبعد أن يبني تقدير الطفل لذاته يتندى مستوى الدافعية لديه ويصبح عاجزاً تماماً عن مسايرة إيقاع العملية التعليمية وسيرونها، لذا يؤكد المربون أنه في غياب تدخل علاجي سريع ومبكر يتفاقم الوضع النفسي عن التلميذ ويصبح أكثر سلبية وحدة⁸. وقد يكون من المفيد أن يخضع إطار التعديل في المنهج إلى رؤية واعية ومستفيضة باحتياجات الأطفال حتى يحقق نجاعته، وهي عملية تتطلب من المعلم إحاطة بالمهارات التي لم يحققها التلاميذ، ويظهر فيها جوانب العجز والضعف، ثم يخطط للتعديلات والحوال التي يراها أكثر فاعلية في تحقيق غرضها، ويكون بالتالي أمام إجراءات كثيرة تشمل المواد والمواقف والوسائل والأوضاع، ذلك أن التشخيص الحقيقي موكول فقط للمعلم الذي يمضي مع تلاميذه مدة طويلة في التواصل والملاحظة، وهو من ثم مؤهل لمراقبة العملية الدقيقة للتشخيص، وحتى يكون هذا التشخيص فعالاً، فإن بعض المختصين في هذا المجال يرون أن هنالك ثلاثة مستويات للتشخيص:

1- مستوى التشخيص المسحي: ويشير إلى عملية غرلة يقوم بها المعلم ذاته بهدف التعرف على الطلاب ذوي الصعوبات ويستعمل فيه الاختبارات التحصيلية واختبارات القدرات العقلية، ويعين من ثم الذين يحتاجون إلى مستويات أدق من التشخيص.

2- مستوى التشخيص المحدد: ويهدف هذا النوع من التشخيص إلى التعرف على الفروق الفردية التي تسبب الضعف التحصيلي عن بعض التلاميذ بحيث يجب تحديد استجابات المتعلم بشكل دقيق للوقوف على المعوقات التي تحول دون قدرته على إنجاز الأهداف، ويطبق هذا التشخيص على نحو فردي ويقوم به المعلم أو المرشد النفسي أو المختص في علم النفس التربوي في المؤسسة

3- مستوى التشخيص المركز: وفي هذا المستوى يتم التعرف على التلاميذ الأكثر تخلفاً في قواهم العقلية والمعرفية ويقوم عادة علم النفس المرضي أو المعالج النفسي بالاختبارات للوقوف على أسباب التخلف ومظاهره وطرق علاجه.

تتطلب عملية تشخيص صعوبة الكتابة تدريب جوانب القوة والضعف عن التلاميذ وإدراك كل العوامل التي تحيط بهم من إهمال عاطفي واجتماعي، أي تحقيق تشخيص العائق والمشكلة وتحديد ما يحيط بها، وتتطلب هذه العملية تقويماً مركزاً يستوفي جميع المكونات والمحددات. إن هدف التشخيص هو معرفة السياق التعليمي للتلميذ بكل عوامله التي تعيق أدائه،

ومن ثم يسهل هذا التشخيص في تحديد المعالجة المناسبة التي تحدث التغيير عند الطفل وتعزز قواه الذهنية والوجدانية للاندماج ايجابيا في سيرورة التعلم.

إن المعالجة لا تعني اختيار منهج مستقل موجه لذوي صعوبات الكتابة، وإنما تعني تكييف المنهج من قبل المعلم بحيث يستجيب للتلاميذ على اختلاف فروقاتهم الفردية واستعداداتهم الذهنية والنفسية وقدراتهم في تعلم الكتابة وتسمح لهم من جهة أخرى بتجاوز مشكلاتهم والاندماج في المسار التعليمي السليم. وهي تعني بهذا المفهوم مجموعة الإجراءات المناسبة التي تتطلب من مؤشرات تشخيصية من أجل تصحيح الثغرات واستدراك النقائص.

وتقع نجاعة المعالجة على كفاءة المعلم وفاعليته في تحقيق الجودة في العملية التعليمية التي تراعي خصوصيات المتعلم النفسية والسلوكية والوجدانية والإدراكية وتقويم مشكلاته ومهاراته المختلفة. إن المعلم قد يعجز في معالجة الصعوبات التي تعترض تلاميذه في القسم ما لم يكن ملما بكل الشروط الضرورية للنهوض بمهمته التعليمية على أحسن وجه، وهي مهمة تجعله يلعب دورا رئيسا في تلقين المعارف وتطوير القدرات الفكرية للمتعلم، فهو من أجل إيجاد الآليات العلاجية المناسبة للصعوبات التي تواجه التلميذ في المرحلة التعليمية المبكرة من التعليم الابتدائي عليه أن يتبنى الاستراتيجيات التدريسية المناسبة، فإذا كانت الصعوبات في الكتابة ناتجة عن الطفل في عجزه عن امتلاك المهارات الأساسية للكتابة، فإن المعلم يجب أن يكون على وعي تام بمستلزماتها .

وفي هذه الحالة يجب أن يكون المعلم مدركا لخصائص النمو الجسدي والعقلي عن تلاميذه، ذلك أن الكتابة فعل عقلي وجسدي في أن واحد. ومن هنا تقتضي المعالجة الناجعة في هذه الوضعية تدريب الطفل على تنمية قدراته الجسدية والحركية اللازمة لاكتساب مهارات الكتابة، ذلك أن أغلب الصعوبات التي يواجهها الطفل في تعلم مهارات الكتابة تأتي من كون أن الكتابة هي عملية معقدة تستدعي عناصر كثيرة وتتطلب كثيرا من القدرات في فهم رموزها والاحتفاظ بها وإعادة نسخها، وهنا تكون القدرات الحركية عن الطفل سندا رئيسا لتفكيره، لذا كانت المعالجة تتطلب من المعلم الحرص على تكثيف التدريبات الإدراكية والحركية عند التلاميذ، فقد أثبتت الدراسات أن تنمية القدرات الحركية تؤدي إلى المرونة في الاكتساب، كما أن القدرة على الكلام عند الطفل ترتبط ارتباطا وثيقا بالحركة⁹، فالنمو الحركي المتوازن عند الطفل يكون مقدمة ضرورية لاكتساب المعارف وتطوير المهارات الذهنية والمعرفية، والمقصود بالحركة هنا هي النشاط الجسدي الايجابي والهادف بوصفه نشاطا ملازما لعملية الكتابة التي تستلزم عند الطفل تنمية لقواه الحركية ونشاطاته الجسدية والذهنية في اللعب والتجريب والاكتشاف¹⁰، وهي كلها نشاطات تنمي لدى الطفل التطور السريع لحسه الحركي وقواه العصبية بما يسمح له بالاندماج الايجابي في اكتساب المهارات. فالمرحلة الحركية للجسم تمنح الطفل تحقيق التناسق الحركي وإتقان أدائه الحركي على نحو يزيد الثقة بالنفس في انجاز الأنشطة المرتبطة بمهارات الكتابة، فالمعالجة التي تبني بهذا الوعي تمكن الطفل من تجاوز صعوباته وتسمح له باكتساب الدقة والتنظيم ومعرفة الاتجاهات والمسافات كما تسمح له بالاكتساب الجيد للحروف والكلمات وإتقان الخط والتمييز بين التكوينات والأشكال.

وإذا كانت مهارة الكتابة هي أكثر المهارات التعليمية صعوبة لأنها تقع عند التلميذ في مواجهة مخزونه الشفهي الذي اكتسبه في الوسط الاجتماعي، فإنه مطلوب من المعلم أن يسخر مكتسباته المعرفية والثقافية والاجتماعية من أجل مرافقة التلميذ حتى يتجاوز عطل الصعوبة وتعقيداتها، وهكذا يجب على المعلم أن يدرّب تلميذه على الاعتماد على ذاته ويعزز لديه رغبة التعلم واكتساب فاعلية النشاط وقوة الثقة في النفس، ذلك أن المعرفة التي يتمكن التلميذ في اكتسابها بنفسه تكون أكثر ثباتا ورسوخا.

¹ Marhic Philippe. l'enseignement individuelle. Une alternative a l'échec scolaire. Paris. Harmattant.2009.p.290.

² ينظر احمد أوزي، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة المغرب ط-1-2006.ص54.

³ ينظر عبد الكريم غريب، البيداغوجيا الفارقية، سيرورات وطرائق لتغيير المدرسة منشورات عالم المعرفة، مطبعة النجاح الجديدة المغرب ط-1-2011.ص60.

⁴ .voir.Perzemychi,P.Pédagogie différenciée. hachette.education. parie. 2001. p.124.

⁵ جان فياض. الصعوبات التعليمية والاضطرابات النفسية. المركز التربوي للبحوث والإنماء بيروت2006.ص25.

⁶ المرجع السابق ص36.

⁷ ينظر فتحي الزيات، المتفوقون عقليا ذوو صعوبات التعلم، دار النشر للجامعات، مصر ط-1-2002.ص516.

⁸ ينظر تيسير مفلح كوافحة، صعوبات التعلم والخطة العلاجية المقترحة، دار المسيرة عمان. الأردن، ط-1-2003، ص65.

⁹ ينظر سوسن شاكر مجيد، التهيؤ القرائي للأطفال، دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان الأردن، ط-1-2001.ص123.

¹⁰ ينظر فاطمة عوض صابر، التربية الحركية وتطبيقاتها، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية مصر ، ط-1-2006.ص164.